عصمت المهندس.. فنانة سعودية تُقدم التراث برؤية معاصرة

حجاج سلامة

يبقى التراث الثقافي المحلي أهم اهتمامات الفنانين التشكيليين السعوديين، الذين يجمع أغلبهم بين المعاصرة من خلال الانفتاح عل أهم المدارس الفنية العالمية وبين التراث بما يمثله من تجذر في البيئة التي توفر الكثير من العناصر الفنية الملهمة، وهو ما نراه في أعمال الفنانة التشكيلية السعودية عصمت المهندس.

درست المهندس الفنون بأكاديمية الفنون الجميلة في القاهرة، وسعت لاكتساب المزيد من المعارف والخبرات الفنية، في أنماط الفنون التشكيلية، فحصلت على دورات متعددة في كل من بريطانيا والبحرين والكويت. وخلال مسيرتها خاضت الكثير من التجارب الفنية، محاولة أن تخلق عوالم متعددة الثقافات، وأن تكون فنانة شاملة، تمارس فنون الرسم والنحت والحروفيات وغيرها من الفنون.

عصمت المهندس

آمل توفير المزيد من قاعات العرض الفني في السعودية وأن تنتشر ثقافة اقتناء الأعمال التشكيلية

وعلاوة على نشاطها الفني تشتغل المهندس معلمة ومدربة في مجال الفنون، وهي ترى بأن أطفالنا شغوفون بدراسة وتعلم كل الفنون.

أقامت الفنانة أول معرض لها في عام 1992، أي قبل 29 عاما. ثم انطلقت في إقامة المعارض الشخصية، بجانب المعارض المشتركة، إضافة إلى مشاركتها في الملتقيات الفنية سعوديا وعربيا ودوليا.

والفنانة عصمت المهندس، من الفنانات السعوديات والعربيات اللاتي أبدعن في مجال التراث، واستلهامه في أعمالهن الفنية باعتباره أحد مقومات الهوية الوطنية.

وهي تعمل منذ انطلاق مسيرتها الفنية وحتى اليوم، على إبراز التراث السعودي وتوثيقه فنيا وتقديمه للأجيال الجديدة، بجانب تقديمه في شتى المعارض والملتقيات العربية والدولية، وذلك بهدف التعريف بتراث بلادها، ومعالم وطنها وحضارته وتاريخه وثقافته.

تؤمن المهندس بأهمية قيام الفنانين التشكيليين السعوديين، بتسليط الضوء على مختلف مناطق المملكة، واستلهامها في أعمال فنية تحفظ تراث تلك المناطق، وتعيد تقديمه برؤى فنية معاصرة. كما تؤمن بأهمية قيام الفنان بتوسيع مداركه، والتفاعل مع ما يدور حوله من أحداث داخل الوطن وخارجه، ومواكبة تلك الأحداث فنيا وتقديم رسائل لمجتمعه، باعتبار أن الفنون التشكيلية تلعب دورا كبيرا في النهوض بالأوطان وتنميتها.

وقد نجحت الفنانة على امتداد مسيرتها في الدمج بين الأصالة والمعاصرة، وفي تقديم تراث وطنها في أطر فنية حديثة تتماشى مع ما يشهده العالم من تطور ومن متغيرات. وقد نجحت أيضا في تقديم فن البورتريه في صورة تؤكد حرصها الدائم على تقديم تراث وفنون وحضارة وطنها المملكة العربية السعودية، للعالم أجمع، حيث أظهرت الشخصيات التي تقدمها من خلال فن البورتريه، وهي ترتدي الملابس التراثية السعودية وفي بيئة سعودية الملامح.

وخلال المعارض التي أقامتها، والتي شاركت فيها في بعض المدن العربية، مثل القاهرة ودبي والكويت وغيرها، حرصت على أن تقدم تراث وفنون وحضارة وطنها لتلك المجتمعات من خلال أعمالها الفنية.

وبجانب اهتمامها بالتراث فيما تقدمه من أعمال فنية، فهي أيضا تهتم بالمرأة، وتشير إلى أن المرأة بطلة أساسية في غالبية أعمالها التشكيلية، وهي مهتمة بقضايا المرأة وحقوقها، وتعمل على دمج تلك القضايا مع صور من التراث.

وقد دفعها اهتمامها بالمرأة، إلى تشكيل مجموعة فنية عضويتها للنساء فقط، وقد أقامت من خلال تلك المجموعة الفنية النسائية العديد من المعارض محليا ودوليا. فقدمت معارض في الرياض وفي المنطقة الشرقية، وفي الكويت والقاهرة والبحرين.

تقول الفنانة المهندس إن هدفها من ذلك التجمع الفني للفنانات العربيات، هو وصول الفنانات السعوديات والخليجيات والعربيات إلى العالمية.

ومن خلال ما يجرى معها من أحاديث ومقابلات، عبرت المهندس، عن أملها في توفير المزيد من قاعات العرض الفني، بأسعار مناسبة، وذلك من أجل تمكين الفنانات والفنانين من إقامة معارض لأعمالهم الفنية، وأن تنتشر ثقافة اقتناء الأعمال التشكيلية في المجتمعات العربية. وأن تكون المعارض الفنية السعودية، ضمن البرامج المعدة لزوار المملكة من السياح العرب والأجانب.

وتتواصل مسيرة الفنانة التشكيلية عصمت المهندس، وتستمر مساعيها لتقديم تراث وفنون وتاريخ وطنها للعالم أجمع عبر أعمال تشكيلية تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتؤكد على ما تتمتع به المملكة من ثراء فني ووجوه تشكيلية رائدة قادرة على المنافسة عالميا.

وكان احتراف المرأة السعودية للفنون التشكيلية ولا يزال موضع أسئلة تحاول مقارنته حجماً ونوعاً بإنتاج الفنانين من الرجال، وهو ما دفع الفنانة إلى التركيز على إبراز الفن النسائي في السعودية، فنجدها تتمسك بإبراز دور المرأة في المشهد التشكيلي السعودي والعربي، وإيمانها بموهبة الفنانات التشكيليات العربيات وامتلاكهن لأدواتهن الفنية بقوة وقدرتهن على المنافسة والإبداع محليا وعربيا ودوليا.

أعمال من عمق التراث

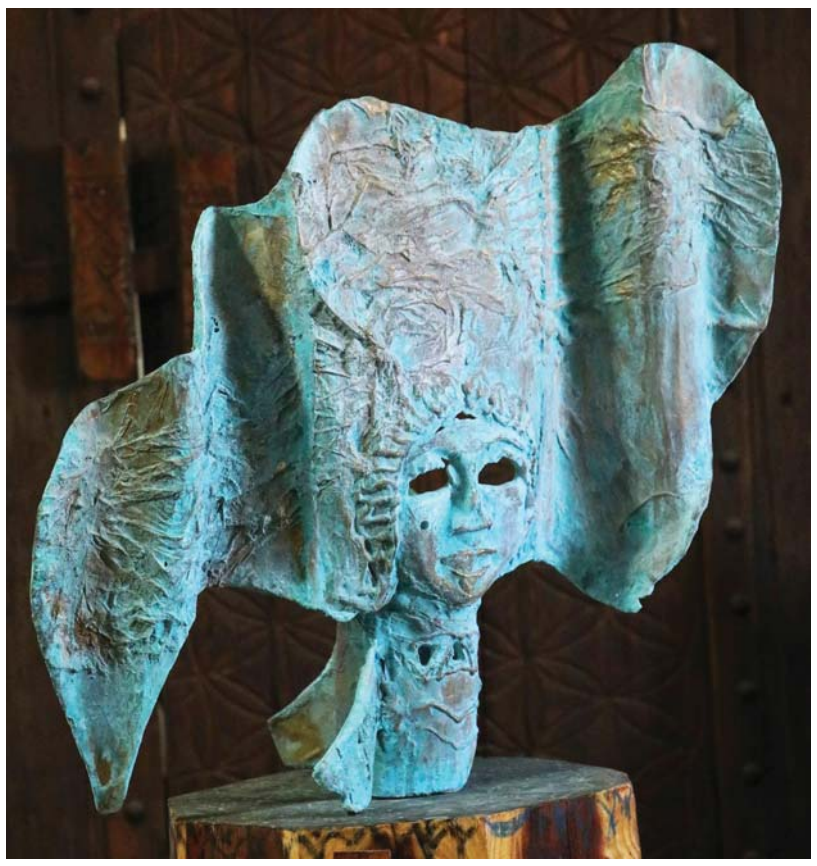

عالم مواز مستوحى من طقس «صناعة الخبز»

قطعة العجين أداة فنية لقراءة المستقبل وتغيير العالم

سماء يحيى: الفن والخبز والحرية سبل استعادة الإنسانية الغائبة

تنحاز الفنانة التشكيلية المصرية سماء يحيى، برؤيتها وخاماتها إلى روح الفن وبساطته، رغم أكاديميتها واستفادتها من أحدث المذاهب الوافدة في التصوير والنحت، تطلق أعمالها الحداثية من تربة محلية وحياة شعبية تتسع للموروث واليومي والعابر الذي يعيد الإنسان إلى ذاكرته، والأشياء إلى حقيقتها، بصيغ معاصرة. "العرب" التقتها في هذا الحوار حول تجربتها، وسلسلة معارضها المتتالية وأحدثها "عرايس الخبيز".

شريف الشافعي
كاتب مصري

تستوحي سماء يحيى في معرضها الجديد "عرايس الخبيز" (22 يونيو- 3 يوليو) في قاعة الباب بساحة دار الأوبرا المصرية مقولة الفنان السويسري ألبرتو جياكومتي "إن هدف الفن ليس إعادة تمثيل الواقع، بل إنتاج واقع آخر مغاير على نفس درجة التركيز" لتقدم مجموعة من الأعمال النحتية البرونزية المبتكرة تمثل عالمًا موازيًا استوحته من طقس "صناعة الخبز".

وفي معرضها تصوّر الفنانة خيالاتها حول: إيزيس الخبيز، عروس الكعك، خيال المآتة، اللعبة، الفلاحة، رقصة الحصان، الطائرة الورقية، وثبة الفنان وغيرها من المشاهد بجانب عمل مركّب لأدوات الخبيز التقليدية في البيوت الريفية.

لهو طفولي

يتوّج المعنى العميق للتفاعل فلسفة يحيى الفنية عبر سلسلة معارضها الأخيرة في التصوير والنحت والأعمال المركبة، ومنها "عرايس الخبيز"، "حكاوي القهاوي"، "بلد المحبوب"، "حلاوة زمان"، فهي بموضوعاتها التراثية وتداولها الخامات الحميمة والمفردات العادية والأدوات المصنّعة والبقايا المهملة لا تقصد انكبابًا على الماضي وعودة إلى دفاتره الممزقة، وإنما تدشن عبر أحدث النظريات والتقنيات كتابة جديدة للبشر والأحداث والأشياء والظواهر بروح العصر، قائمة على استكناه الجوهر، والوصول من أقصر الطرق، واستكشاف الومضات الذائبة في الضمير.

تشير الفنانة في حديثها لـ"العرب" إلى أن قطعة العجين في معرضها "عرايس الخبيز" أداة فنية طيّعة تتجاوز استعمالاتها الطبيعية لتقود إلى محاولة قراءة المستقبل والسعي إلى تغيير العالم، ولمَ لا، والفن والخبز والحرية أبرز سبل استعادة الإنسانية الغائبة؟

وتتابع لقد سَمّى الأجداد الخبز "عَيشًا" واقترن "العجين" بمناسبات الحياة واليوميات المختلفة، فهناك معجّنات ومخبوزات في الأفراح والأعياد وفي المآتم وزيارات المقابر وسائر المواسم والمراسم، وصوّرت الحضارة الفرعونية سنابل القمح والشعير وهي تنبت من صدر أوزوريس وتحوّلها إيزيس إلى أرغفة خبز.

تنحاز تشكيلات المعرض إلى البراءة والسذاجة، حيث خيالات الطفولة الأولى، التي تتعامل معها بحرفية لا يمكن الإمساك بها، فالفن لديها هو لعب عفوي بالأشكال، من غير حسابات، ودون قيود.

وتقول يحيى "أحرص على الإمساك ببدائية الحلم، بدءًا من انتقاء آلية السبك بالرمل للحفاظ على الملمس والبصمة والتجاعيد والثنايا، انتهاء بالتلوين الذي يراعي عوامل الزمن بإضافة ذلك اللون المعبّر عن الصدأ. هذه المعالجة المختلفة للعلاقة بين الكتلة والفراغ تنشد العوالم البكر للفن، الذي كان ينتجه القدماء كغاية جمالية مجردة. هي ببساطة لحظات تخليق حرة، تعكس مشاغبات طفلة تلهو بسعادة، وترجو حماية طقس شعبي من الاندثار".

تعنى سماء يحيى في تجربتها الممتدّة من خلال النحت بالأدوات المصنعة، والمواد سابقة التجهيز، وهو فن يختلف في فلسفته ورؤيته عن استعمال المخلفات، إذ يتفق في زوال الغرض النفعي وتحويله لشكل جمالي صرف، لكن لكل أداة مستخدمة شخصيتها وروحها في العمل الفني، وهو نمط من أنماط النحت عرفته أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى، وارتبط بحركة الدادا، وكان مارسيل دوشامب رائده، وشجعه السرياليون، ووضع أندريه بريتون وبول إيلوار تعريفًا له على أنه اختيار غرض نفعي اعتيادي يستعمل في الحياة العملية، وترقيته ليصبح فنًا على يد الفنان، وانطلق هذا الفن إلى الولايات المتحدة، وظل عقودًا طويلة مرتبطًا بالثقافة الغربية، ونال اهتمام بيكاسو وروشنبرغ ولويس نيفلسون وآخرين.

في هذا المضمار، قدّمت الفنانة معرضيها السابقين "حكاوي القهاوي" و"بلد المحبوب" في التصوير والتكوينات النحتية المتشابكة الباذخة، في محاولة لتوليد حالة من التجانس بين وسائط فنية مثل رسم الزيت ومنحوتات البرونز والنحت الخزفي، وتحقيق تفاعل بينها وبين الأخشاب القديمة وأقمشة الخيام.

وتؤكد يحيى في حوارها مع "العرب" أن ما يجذب في هذا النوع من النحت أنه بمثابة مفاجأة ودهشة للفنان، قبل أن يكون للمتلقي "أنت لا تستطيع أن تحدد الشكل الكلي للمنتج الفني قبل انتهائه، كما أنك قادر على الإضافة والحذف منه في أي وقت، بحسب رؤيتك، فهو لعبة وتحدٍّ للنفس، للحفاظ على القواعد وكسرها، والحوار مع الأشكال والتكوينات، فالمادة المستخدمة هنا لها خصوصيتها ولها حياتها وماضيها وذاكرتها، قبل أن تصبح عملاً فنيًا. أنت تتعامل مع كائن كان حيًا، وتحاول إعطاءه بعدًا حياتيًا جديدًا".

في أعمالها غير النمطية تعيد الفنانة مثلاً تقديم ماكينات الخياطة القديمة وصندوق مسح الأحذية و"صندوق الدنيا" والمراكب الخشبية و"كوشة" العروسين والكراسي والتلفزيون و"الشيشة" وغيرها من مفردات المقاهي والبيوت في تكوينات مغايرة تنطق بالنوستالجيا (الحنين إلى الماضي) وبلغة الحياة المعاصرة في آن. وحتى في التصوير، فالرسم على الخيام هو أيضًا تحدٍّ تخوضه الفنانة لتقديم الجديد وغير المتوقع، فالتصميم الأصلي للخيمة، وأحيانًا التمزقات والخياطات والبقع، تفرض ابتكار حلول واستخدام تقنيات لم تكن في الحسبان.

حمولة عاطفية

تتسع تجربة يحيى لمصر بأكملها وكأن الوطن في حالة من الاسترخاء بعد يوم عمل شاق وطويل، فالنساء بكل الرقة والانتظار والرخاوة والهدوء يقمن في "بلد المحبوب"، والرجال بكل الصخب والزخم واللعب و"الدوشة" (الضجة) المميزة للشعب المصرى في "حكاوي القهاوي"، يربطهم جميعًا عالم الفرح، و"الكوشة" التي تجمع العروسين.

إن قصة كل يوم في البيوت المصرية منذ بدأت الحياة حتى يومنا هذا تشير إليها منحوتة المركب، التي تحمل البنات في بلد المحبوب، لأن المرأة هي التي تقود مركب الحياة من البداية إلى النهاية لتصل الأسرة لأداء دورها الكامل.

وتقول يحيى لـ"العرب"، "مفرداتي الرئيسية بسيطة وحميمية، قريبة للمُشاهد، فهي كلها أدوات ذات تاريخ، ارتبطت بحياة بشر، وعاشت معهم، تنفست الهواء ذاته، وعاشت تفاصيلهم وسمعت حكاياتهم، ولقد تركوها ورحلوا، أجيالًا وراء أجيال، فأصبحت أدوات ذات هوية وشخصية".

تتعاطى الفنانة مع أدوات يومية مألوفة للمتلقي، لديه معها خبرة طويلة وتجربة عاطفية، مثل ماكينة الخياطة والطاولة وأدوات القهوة وخيام الفرح والصوانات وأدوات الزراعة وأكواب الشربات وغيرها، محاولة خلق عمل فني محكم، يحافظ على الجماليات الفنية، ويدهش المتلقي، وهذا هو التحدي الحقيقي. وتسعى إلى استفزاز رؤية المتلقي وذائقته، ليرى أن الجمال موجود في أبسط الأشياء، وفي كل الأشياء، وليخرج من تلك الفجوة التي تفصل بين الفن التشكيلي والمواطن العادي، حيث يتصور الأغلبية أن الفن التشكيلي ظاهرة فوقية يهتم بها المختصون والقادرون ماديًا فقط.

وتنفي الفنانة هذه النظرة قائلة "إننا أبناء أقدم حضارة في العالم عبرت عن نفسها بالفن، قبل أن تعبر باللغة، فنحن من وضع أغلب قواعد النحت المعمول بها حتى اليوم، وما زلنا نعبر عن أفراحنا وسعادتنا وتديننا بالرسم على الحوائط وصناعة عرائس الحلوى، وإن كان هذا قد أوشك على الاندثار مع اختلال منظومات القيم. أحاول كسر هذا الحاجز للوصول إلى الناس، لكي يروا أنفسهم وما يحبونه وما استعملوه وما زالوا يستعملونه كل يوم؛ وقد أصبح فنًا وبهجة، فنًا يرتقي بهم ومعهم، ولا يتعالى عليهم".

في معارض سماء يحيى، وأعمالها الفنية عمومًا، يبدو المتلقي العادي هو المستهدف بشكل أساسي، وتؤكد الفنانة أن تفاعله وانفعاله بالعمل الفني هو المكسب الحقيقي "استخدام الأدوات ذات التاريخ ليس سهلًا، فإما أن تصل إلى قلب المتلقي وعقله، وإما أن يجد فيها غرابة منفرة. ولكي تصل له، يجب أن توجد حلولًا لمعادلة صعبة، ولعلني نجحت في حلها من خلال ما لمسته من تفاعل الجمهور مع الأعمال والقدر الكبير من الحميمية بين المتلقي والعمل وما يحكيه من ذكريات وما يفجره من دهشة".

الفنانة تحيي مفردات التراث وعناصره في صيغ معاصرة من خلال معرضها النحتي الجديد حول طقوس صناعة الخبز

ولا تغفل الفنانة المصرية الأطفال وصغار السن في أعمالها التي تستثير فضولهم، وتقول مختتمة حديثها مع "العرب" "أعتقد أن المد العولمي سرق منهم ومنا الكثير من البهجة، وأفقدنا الكثير من هويتنا وخصوصيتنا وخصوصية الفن، ولربما تتيح أعمالي فرصة ليتعرف جمهور الصغار على أشياء ارتبطت بحياة أجدادهم وآبائهم، فلديّ دائمًا أمل في استمرار حالة حيوية تنتقل من جيل إلى جيل".